وعلى هذا النهج تأتى تجربة الخنساء مكررة فى رثاء أخويها صخر ومعاوية ، وربما بدت أشد عنفا فى قصائدها التى جمعت بينهما فيها ، إذ الخطب لديها يتحول إلى خطبَيْن معاً ، وعندها يتحول الحزن على الفقيد إلى فقيدَيْن ، فتبدأ مقطوعتها الثانية بشكوى الدهر ، وكأنها تعتب عليه عتاب مرارة الراثى المنهزم ، على تلك اللغة التى عُرفت عن أبى ذؤيب الهذلى إزاء قسوة الدهر والمنية معاً ، خاصة إذا اتحدا على الإنسان الضعيف فأفقداه ما بقى من حوله :

أمن المَنونُ وريْبِها تتوجـــــــع والدهر ليس بمُعْتِبٍ من يَجْـــــزَعُ؟

ومن شكوى الدهر تستسلم الشاعرة تماما لأحزانها ، وتترجمها فى صيغ بكائها وتصوير حجم مأساتها ، وإن أدركت أن جدوى البكاء غير واردة ولا هى متخيلة أو متوقعة ، ولكنه الإلحاح والاضطرار أمام الإدراك لعدم تلك الجدوى ، خضوعاً لحيَرْتها وصدوراً عن تمزقها وانهيارها ، فهل بقى لها من شئ تستطيع التسلى به ، وهو ماراحت ترده فى البيتين (٢ ، ٥) ، وبعدها راحت تلح فى خطابها للفقيد ، لتنتقى من الألفاظ ما يناسب موقفها منه : بين بكاء ، وأسى ، وميت ، وقبر ، وثاو عير بيت واحد .

ثم تتبع هذا كله بما نرمى إليه من التخفُّف من تلك الأحزان ، أو محاولة التعزِّى عن فقيدها بصيغ دعائية ، كأنما قصدت إلى تكررها أربع مرات فى الأبيات (٣ ، ٤ ، ٦) ، دون أن تنسى مزج الدعاء بتأبين المرثيَيْن فى تصوير طيب عهدهما ، وماكان لهما من طيب الفعال والجود والشجاعة ، وكأنها تبرر بذلك لاستمرارية بكائها عليهما الدهر كله ، وهى استمرارية تصوِّرها متألمة ، خاصة حين تنقض ما عرضته من إدراك مؤكد لعدم جدوى البقاء ، وإن كانت تصر عليه ، إد ربما كشف شيئا من حنينها (ماحنَّ والهٌ) ، وهى استمرارية لن تعرف لها نهاية ، و إن بدت على يقين من أن بكاءها سيظل رأسيا رسو الجبال ، ثابتاً ثبات الأشياء والحقائق التى لا تعرف تحُّولا ، فهى - بدورها - لا تعرف مدخلا إلى طريق الخلاص ، بل لعلها لا تريد ذلك الخلاص أصلا ، لأنها إنما تتوحد أيضا مع تجربة الحزن التى يعكسها منطق هذا الرثاء ، فلا تكاد تحيد عنه ، ولا هى تتجنبه حتى تموت .

وعلى هذه الصورة راحت الخنساء تطّوع معجمها الرثائى انطلاقا من أعماق أحزانها ، وازدحام نفسها بمشاهد الأسى والكآبة من خلال استجابتها العفوية لإيقاع الحدث ، فلم تشأ أن